لأنّه، كما يقول ديكارت:«.. جرّبت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خدّاعة؛ ومن الحكمة أن لا نطمئنّ كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة»[30]، واحتمال أن أكون في لحظة ما غارقاً في أحلامي، ومن ثمّة لا أكون مدركاً للعالم الحقيقي على الإطلاق، و« يبدو لنا حينذاك أنّنا نحس بشدّة ونتخيل بوضوح عدداً لا يحصى من الأشياء التي ليس لها وجود في الخارج.»[31] ثمّ شك في القضايا الرياضية، فـ"ديكارت" لم يتوقف عند هذا الحد، فمن الممكن أن نشك في كل موضوع للمعرفة؛ فحتّى الحقائق الرياضية المتعلقة بـ«.. الجسم والشكل والامتداد والحركة والمكان ما هي إلاّ أوهام من أوهام نفسي»(32)، ويقدّم في " المبادئ" حججه، كما شك في وجوده، فقد يكون ذلك كلّه أشبه ما يكون بحلم.

حالة "ديكارت" هذه سرعان ما تزول عن طريق اكتشافه لحقيقة لا يمكن أن توضع موضع تساؤل، وهي أنّه كائن موجود. ولا يستطيع أن يشك في هذه القضية لأنّ الشك في ذاته يكون مستحيلاً لو لم يكن هو في ذاته(ديكارت) موجوداً ويقوم بفعل الشك. التفكير أساس الوجود هذا ما خلص إليه ديكارت" أنا أشك، إذن أنا أفكر، أنا أفكر، إذن أنا موجود" يقول ديكارت: " أنا كائن وأنا موجود" قضية صحيحة بالضرورة» (33)

30 - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل الأول، ت/ عثمان أمين، المطبعة الفنية الحديثة، ط4، 1969.ص ص:72- 73.
31 - ديكارت (رينيه) ، مبادئ الفلسفة، ت/ عثمان أمين،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.، القسم الأول، ص: 54.
32 - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل الثاني، مصدر سابق، ص :94.
33 - المصدر نفسه، التأمل الثاني، ف: 4-5. ص : 95.

المحاضرة الخامسة. ديكارت (2)

اليقينيات الديكارتية: الذات، الله، العالم الخارجي.

لقد كان من نتائج الشك الديكارتي أن اكتشف ديكارت أرضاً صلبة يرتكز عليها، ويؤسس عليها نسقه الفلسفي، فالغاية من الفلسفة عنده تتمثل في العمل، كما كتب إلى صديقه "**شانو**" وهذا العمل يرتبط بمعرفة يقينية للذات و لله وللعالم الذي نعيش فيه. يقول ديكارت: "..إنّ أمثل الطرق لكي نعرف كيف ينبغي أن نحيا هو أن نعرف أولاً من نحن، و ما العالم الذي نعيش فيه، ومن هو خالق هذا الكون الذي فيه مقامنا"([34])

1-اكتشاف الذات المفكرة: وهنا وصل "ديكارت" إلى نقطة البداية الحقيقية لنظامه الفلسفي. يقول "ديكارت": «.. لكني اقتنعت من قبل بأنّه لاشيء في العالم بموجود على الإطلاق(وقد أنكر من قبل أن يكون له حواس أو جسم)، فلا توجد سماء ولا أرض ولا نفوس ولا أجسام، وإذن فهل اقتنعت بأنّي لست موجوداً كذلك؟ هيهات!...وينبغي عليّ أن أنتهي إلى نتيجة وأن أخلص إلى أنّ هذه القضية" أنا كائن وأنا موجود" قضية صحيحة بالضرورة» (35). لكن ما حقيقة وجود الذات؟ يجيب "ديكارت" ... أمّا صفة التفكير فهي التي تخصّني، ليصل إلى« أنا موجود مادمت أفكر؛ فقد يحصل أنّي متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً»(36)، وهذه ما تعرف بقضية الكوجيتو " أنا أفكر إذن أنا موجود" (***Cogito Ergo Sum***). أمّا فائدة هذه المعرفة فهي القاعدة الصلبة، وليست الأرض الرخوة، أو الرمل المتحرك الذي يقيم عليها البناء الفلسفي « طبيعة هذه

---

[34] - ديكارت (رينيه) ، مبادئ الفلسفة، ت/ عثمان أمين، مقدمة مترجم الكتاب إلى العربية، ص: 15.
[35] - ديكارت، التأملات، المصدر نفسه، التأمل الثاني، ف: 4-5. ص : 95.
[36] - المصدر نفسه، التأمل الثاني، ف:8. ص ص :98-99.

المعرفة هي حجر الأساس لنظام ديكارت» (37). بعد أن وجد القضية البديهية تأتي عملية الاستدلال، إذ يستدل من وجود ذاته كذات مفكرة إلى وجود الله.

2- **إثبات وجود الله:**

إثباته لوجود الذات قبل وجود الله إنّما كان لحاجة معرفية، أمّا من الناحية الأنطولوجية فكانت أسبقية الله قبل وجود الذات، ليصل "ديكارت" إلى أنّ جميع المعارف التي يستنتجها بعد وجود الذات ووجود الله إنّما تعتمد على مبدأ الصدق الإلهي. ويقدّم حججاً بعضها ذات طابع أنطولوجي والأخر ذات طابع علّي سببي.

يقدّم ديكارت أربعة حجج لإثبات وجود الله اثنان منها ذات طابع أنطولوجي وهما دليلان من تصور طبيعة الله، والباقي ذات طابع علّي سببي([38]). ويمكن تلخيص هذه الحجج كالآتي:

الأدلة ذات الطابع الأنطولوجي: الأول منه يستند إلى شهادة الشعور، ويمكن صياغته كالآتي: لدي شعور واضح تماماً مثل الشعور بذاتي، وبالتالي أنا موجود. فكذلك لدي شعور بالله مثل ذاتي، وبالتالي الله موجود. بعبارات ديكارت في عمله التأملات: ".. لا جرم أنّي أجد في نفسي فكرة عن الله- أي فكرة عن موجود مطلق الكمال- كما أجد في نفسي فكرة عن أي شكل أو عن أي عددن وأني اعرف أنّ الوجود الفعلي و الأبدي من خواص طبيعته ، وأعرف ذلك على وجه لا يقل وضوحاً وتميّزاً عن معرفتي أنّ كل ما أستطيع إثباته عن أي شكل أو عن أي عدد إنّما يخص طبيعة ذلك الشكل أو ذلك العدد في الحقيقة..."([39])

---

[37] - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy,*Op.cit*. p:25.

[38] - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy,*Op.cit*. p:26.

[39] - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل السادس، مصدر سابق، ص ص :212-213.

أمّا الدليل الثاني وهو دليل تكرر في أعمال ديكارت، لكنه لا يعود في الأصل غلى ديكارت، بل يعود إلى الفلسفة الوسيطية مع القديس "**أنسلم**"، ويعرف أساساً بدليل **أنسلم** ([40])، وبإيجاز يمكن صياغته كما أعطاه ديكارت كالأتي:فكرة الله هي فكرة كائن كامل لا متناهي، لكن الكمال يتضمن صفات: القوة القدرة المعرفة وأيضاً الوجود.و بالتالي الله موجود. يقول ديكارت في كتابه المبادئ القسم الأول:"..وإذا عاد الفكر بعد ذلك واستعرض الأفكار المختلفة القائمة فيه، فاكتشف منها فكرة موجود محيط العلم والقدرة، كامل غاية الكمال، تيسر له أن يحكم بما يراه في هذه الفكرة من أن الله، وهو ذلك الموجود الكامل على الإطلاق."([41])

أمّا أدلة ديكارت العلّية: عن وجود الله فيمكن اختصارها في القضايا الآتية:

أعرف أني موجود، وأني كائن مفكر ومحدود، أملك فكرة عن الله. كائن كامل ولا متناهي.

لكن كلا من ذاتي و الفكرة التي أملكها عن الله تعود إلى كائن قادر على خلقي وحفظ ذاتي و فكرة الله التي أجدها في نفسي.

الكائن الوحيد الكامل هو الذي يكون علة ذاتي وعلة للفكرة التي املكها عن الله، وعليه فالله أو الكائن الكامل موجود.

3- إثبات وجود العالم المادي وطبيعة موضوعاته:

وهكذا كان من نتائج الشك إثبات وجود الذات أو "الكوجيتو" كقضية واضحة بذاتها ليستدلّ من خلالها على وجود الله؛ وإثباته لوجود الذات قبل وجود الله إنّما كان لحاجة معرفية، أمّا من الناحية الأنطولوجية فكانت أسبقية الله قبل وجود الذات، ليصل "ديكارت" إلى أنّ جميع

[40] - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy,*Op.cit*. p:26.

[41] - ديكارت (رينيه) ، مبادئ الفلسفة، ت/ عثمان أمين. مصدر سابق. ص: 61.

المعارف التي يستنتجها بعد وجود الذات ووجود الله إنّما تعتمد على مبدأ الصدق الإلهي. وبهذا ينتقل من اليقين بوجود الله و من عدم خداعه له ليثبت وجود العالم الخارجي وما يحتويه من أشياء مادية في التأمل السادس «..يبدو لي، يقول "ديكارت"، أنّ أمامي الآن طريقاً سينقلني من تأمل الإله الحق إلى معرفة باقي الأشياء في الكون. ويعالج الأشياء المادية على أنّها موجودة لا بوصفها مجرد موضوعات للرياضيات البحتة، وإنّما كأشياء موجودة ومشخّصة. وأول سؤال يثار هو هل من الممكن أن تكون مثل هذه الأشياء موجودة مستقلة عن الجوهر المفكر يعني عقلي، وخارجة والأفكار التي لدي عن مثل هذه الأشياء؟» (42) ويستند "ديكارت" في إثبات وجود أشياء العالم المادي إلى دليلين[43] يمكننا أن نلخصهما كما وردا في "التأملات"، و"المبادئ":

* أما الدليل الأول فيقوم على أساس الضمان أو الصدق الإلهي بعد البرهنة على وجود الله وصدقه. ويمكن صياغة الحجة كالآتي على لسان "ديكارت":

1. لا شك في أنّني أملك إدراكات حسية متنوعة، أي أفكاراً عن الموضوعات الحسية وكيفياتها.

2. ولدي، يعتقد "ديكارت"، ميل واضح بأنّ هذه الأفكار محدثة بواسطة موضوعات حقيقية خارجية عنّي.

3. ولمّا كان الله هو الذي منحني هذا الميل القوي جداً لاعتقد أنّ تلك الأفكار تنشأ من الموضوعات المادية، وليس من مصدر آخر.

---

[42] - شاخت (ريتشارد)، رواد الفلسفة الحديثة، ص : 47.

[43] - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy, *Op.cit*. p:34.

4. و كما سلّمنا بأنّ الله موجود، وأنّه علّة وجودي، ألا يتبع ذلك بالفعل وجوب كونه علّة ميلي للاعتقاد بأن مصدر مدركاتي للأشياء المادية هو الأشياء المادية الفعلية.

5. وأن الله يستحيل أن يخدعني.

6. وبالتالي يجب أن نخلص إلى القول بوجود الأشياء المادية الجسمانية.

يقول "ديكارت": « ولمّا كان الله غير مخادع، فبيّن أنّه لا يرسل إليّ هذه الأفكار بنفسه ومباشرة، ولا بواسطة مخلوق، لا تكون حقيقتها منطوية فيها على وجه الصورة، بل على جهة الشرف فقط: فإنّه لمّا لم يكن منحني أي قوة أعرف بها..، بل جعل فيّ ميلاً شديداً جداً إلى الاعتقاد أنها صادرة عن الأشياء الجسمانية، فلست أرى كيف يمكن إبراؤه من الخداع إذا كانت هذه الأفكار صادرة في الحقيقة عن شيء آخر أو كانت حادثة عن علل أخرى غير الأشياء الجسمانية. وإذن فيجب أن نخلص إلى القول بأن الأشياء الجسمانية موجودة» (44)

*أمّا الدليل الثاني فهو الذي يؤكده "لوك" فيما بعد ويوظفه باركلي وحتى "هيوم" خدمة لموقفيهما من مشكلة العالم الخارجي؛ وهو دليل يقوم على أساس التفرقة بين نوعين من الأفكار: أفكار الإحساس وأفكار الخيال. فأما أفكار الإحساس فهي أفكار تفرض ذاتها عليّ، وهي غير ممكنة التجنب، فلا أستطيع إلا أن أدرك الموضوع الذي يكون حاضراً أمام حواسي، فلا أستطيع تجنب رؤية الشمس عندما أفتح عيني باتجاهها، ولا أستطيع أن أدركها، مهما كانت الرغبة لدي، إذا لم تكن حاضرة أمام حواسي، كما لا أستطيع أن أكونها عن طريق الخيال، أو التذكر. ويعبر "ديكارت" عنها بقوله:« أفكار الإحساس هي الأفكار التي كانت تعرض لي بدون رضاي، بحيث أنّي لم أكن أستطيع أن أحس أي موضوع مهما تكن رغبتي قد اتجهت إليه ما لم يكن ماثلاً أمام

44 - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل الثاني، ف:22.، مصدر سابق، ص :252.

عضو حاسة من حواسي، كما لم يكن في مقدوري البتّة ألاّ أحسه إلاّ إذا كان ماثلاً أمامه» (45).

و« هذه الأفكار التي كنت أتلقّاها عن طريق الحواس هي أكثر حيوية وأقوى تعبيراً، وفي بابها أكثر تميّزاً من أيّ من تلك التي كنت أستطيع خلقها من نفسي بالتأمل، أو من تلك التي أجدها مطبوعة في ذاكرتي» (46). وبهذا نستنتج أن الأفكار المتعلقة بالتخيل والتأمل تكون أقل حيوية ووضوحاً من الأفكار السابقة وأستطيع أن أتحكّم فيها بإرادتي. والغرض الأهم من هذه التفرقة بين نوعي الأفكار هو البحث عن مصدرها ويثبت من خلالها وجود موضوعات العالم المادي الجسماني. وعليه تلك الأفكار التي لا أقدر على تجنب إدراكها إذا كانت حاضرة لن أكون مصدرها، لأنه لو كان كذلك لاستطعت التحكم فيها، وهكذا يعتمد "ديكارت" على واقعة لا نشك فيها وهي: أنّ إدراكاتنا الحسية تفرض ذاتها علينا، وذلك يفرض علينا أن نسمع ونرى ونشم ما يعرض علينا. ويتبع ذلك أنّنا لا نحدث بإرادتنا الحرّة هذه الإدراكات البسيطة، وبالتالي هي من مصدر آخر.

- يفترض "ديكارت" في هذا الدليل أربعة مصادر ممكنة لأفكارنا الحسية عن الموضوعات المادية الجسمانية:

1- قد أكون (أنا) علّة أفكاري عن موضوعات العالم المادي.

2 – قد يكون الله زوّدني بهذه الأفكار بصورة مباشرة.

3- قد يكون مصدرها شيئاً ما آخر غير ذاتي أو الله، ولكن يملك قوة كافية ليحدث فيّ أفكار الموضوعات المادية، ولكنّه متميّز عن الموضوعات المادية.

4- قد تكون محدثة بواسطة موضوعات العالم الخارجي.

---

45 - ديكارت (رينيه)، التأملات في الفلسفة الأولى، التأمل السادس، ف:9.، ص ص:243-244.

46 - المصدر نفسه. التأمل السادس، ف: 10، ص: 244.

"ديكارت" يستبعد الاحتمالات الثلاثة الأولى كمصادر للأفكار الحسية، مثلاً فيما يتعلق بذاتي فلا يمكن أن أكون علّة هذه الأفكار، كما بيّنا سابقاً، لأنّي لا أستطيع أن أوجد أو أتجنب أفكار الموضوعات المادية وفق إرادتي، أمّا فيما يتعلق بالله فقد أودع فيّ ميلاً لأعتقد أنّها ليست محدثة من طرف ذاته بصورة مباشرة والله لا يخدعني..

ولما كانت هذه الموضوعات التي لا أملك عنها أي معرفة غير تلك الأفكار نفسها التي ملكتها، فلا شيء يخطر لذهني غير افتراض أن تلك الموضوعات شبيهة بتلك الأفكار التي كانت سببا لها؛ ومن الواضح، إذن أن الأجسام، أو الموضوعات الواقعية هي موجودة خارجة عني لتفرض هذه الانطباعات عن ذاتها عليّ. وما يمكن استنتاجه هو أخذ "ديكارت" بمبدأ العلية، وأيضاً إثباته للوجود المستقل لأجسام العالم المادي عن العقل من خلال الأفكار التي يملكها عنها(47). وما هو ملاحظ أن الدليل الثاني يفترض مسبقا وجود الدليل الأول في إثبات الوجود المستقل للعالم الخارجي(48)، ويمكن حتّى دمجهما في دليل واحد(49). صفة هذا العالم والأشياء الحسية هو الامتداد، و هو موجود حقيقي يملك مجموعة كيفيات(***Qualities***) يعتقد "ديكارت" أنّ الأشياء المادية الحقيقية هي ببساطة أشياء ممتدة؛ إنّها لا تملك لوناً أو رائحة أو ذوقاً أو تركيباً..إنّها مجرد شكل وصورة وامتداد" (50). وترتبط مسألة كيفيات الجسم بفكرة الجوهر، الذي يعرفه بقوله: « حين نتصور الجوهر، إنّما نتصوره موجوداً،غير مفتقر إلاّ إلى ذاته في وجوده»(51). فالكائن الذي يصدق عليه هذا التعريف هو الله فقط. لكن "ديكارت"، فيما بعد، يجاري المدرسيين، "فالأشياء" التي

---

47) - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy,(New York the Macmillan Company ,London, Macmillan &co.,Ltd). PP:35-36.

48 - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy: *Op.cit*. P: 36.

49 - انظر صورة المحاجة التي قدّمها رتشارد شاخت في كتابه:رواد الفلسفة الحديثة، ص ص:48-49.

50 - Calkins.M.W,The,The persistent problems of Philosophy, *Op.cit* .p:37.

51 - ديكارت(رينيه)، مبادئ الفلسفة، مرجع سبق ذكره، ص 88.

تفهم أنّها جواهر هي التي يمكن أنّ توجد دون اعتماد على أي شيء مخلوق[52]، و هكذا، يظهر لنا التمييز الأولى بين الجوهر الإلهي الخالد الذي يصدق عليه التعريف الأول، و الجواهر المخلوقة التي ينطبق عليها المفهوم الثاني، ثمّ يشير "ديكارت" إلى تمييز آخر يتعلق بالجواهر المخلوقة «... لفظ الجوهر يمكن نسبته إلى النفس و الجسم بمعنى واحد»[53]، فالفكر هو المقوم لطبيعة النفس، و الامتداد هو المقوّم لطبيعة الجوهر المادي.

حجج "ديكارت" في إثبات وجود العالم الخارجي قائمة كلّها على أساس الصدق الإلهي، أي أنّ "ديكارت" كان في حاجة إلى دعامة من الإيمان لكي يتخلّص من إمكان الخداع. ولو تأمّلنا قليلاً دور فكرة الله في ضمان وجود العالم الخارجي، لوجدنا أنّ المقصود من هذه الفكرة هو في أغلب الأحيان حلّ مشاكل خلقتها فكرة الله ذاتها أو أفكار أخرى مشابهة**(54)**. و قد تفقد حجّته قوّتها إذا كانت حجة الصدق الإلهي غير ثابتة أو غير كافية.

---

[52] - المصدر نفسه، ص: 89.

[53] - المصدر نفسه، ص: 89.

[54] - زكرياء (فؤاد)، نظرية المعرفة والموقف الطبيعي،مرجع سبق ذكره، ص ص: 77-83.